الفصل الثالث

الأمة قبل صلاح الدين

صعود وهبوط الفرد والأمة

قبيل العرض لبعض جوانب سيرة البطل الناصر صلاح الدين الأيوبي، من الجدير التأكيد على أهمية الربط بين عوامل الصعود والهبوط في حياة كل فرد، وبين علاقته بالله سبحانه وتعالى. وذلك من المهم بمكان لأنه ما ينطبق على الفرد يصح أيضا بالنسبة للأمة. فكما أن صعودها لا يتأتى إلا بارتباطها بالله، فإن هبوطها ليس إلا نتيجة لفقد الصلة بينها وبين خالق السموات والأرض.

التوحد... يا أمة التوحيد

إذا كان تفرق المسلمين سببا ثانيا لسقوط أمتهم فإن القضاء عليه أمر من الله العلى القدير الذي أوضح لنا وجوب ارتباط كل مسلم بأخيه المسلم بما يؤدى إلى أن تعتصم الأمة كلها في نسق واحد ونسيج واحد. يقول الله تعالى:

﴿ وَٱعْتَصِمُوا۟ بِحَبْلِ ٱللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا۟ ۚ وَٱذْكُرُوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنتُمْ أَعْدَآءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُم بِنِعْمَتِهِۦٓ إِخْوَٰنًا ﴾ [آل عمران:١٠٣].

ويقول رسول الله ﷺ: **«من لم يهتم بأمر من أمور المسلمين فليس منهم»**. وفى حديث آخر **«مثل المؤمنين في توادهم وتراحمهم وتعاطفهم كمثل الجسد الواحد إذا اشتكى منه عضو تداعت له سائر الأعضاء بالسهر والحمى»**(رواه مسلم).

وعليه، فإن توحد المسلمين ليس مجرد فكرة تنبع من مخيلة أحد الأشخاص وإنما هو ارتباط بالدين، الارتباط الأسمى. والارتباط بأمة الإسلام يعنى ارتباط الدول ببعضها في وحدة واحدة اتباعا لأحد الأسس الرئيسة لهذا الدين الحنيف الذي لا يجوز التفريط فيه على الإطلاق. ولذلك، عندما تضعف الرابطة بيننا وبين المولى عز وجل، يطغى حب الذات، فينفرط العقد ويعود كل جزء من الأمة إلى أصله الجاهلي. وأثناء إقامته بالمدينة، خاطب الرسول ﷺ الأنصار من الأوس والخزرج قائلا لهم:"أبدعوى الجاهلية وأنا بين ظهرانيكم؟ دعوها فإنها منتنة!". وقد جاء نهى النبي الكريم ليضع حدا للعصبية لغير الإسلام، فلا داعي أن يتفاخر الواحد منهم " أنا أوسي، صاحب الأمجاد"، فيرد عليه الآخر" وأنا خزرجى، أمجادي أكثر من أمجادك"، وذلك لأن الأمجاد الحقيقية هي أمجاد الإسلام الذي يربطنا بالله سبحانه وتعالى. يقول الله في محكم آياته:

﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ﴾ [الحُجُرات:١٣].

عندما ضعفت رابطة المسلمين بدينهم ظهرت الانقسامات. فبعد أن كان هناك خليفة واحد أيام الخلفاء الراشدين، ثم الدولة الأموية، ثم بداية الدولة العباسية، طغت الانقسامات على الانتماء للإسلام حيث استأثرت ثلاث دول متعاقبة بمصر عن الدولة العباسية. كانت أولى هذه الدول الطولونية وأعقبتها الإخشيدية ثم الفاطمية التي حكمت مصر طيلة مائتي عام واستقطعت حوالي نصف أراضى الدولة العباسية بما فيها الشام. و أصبح هناك دولتان، العباسية والفاطمية. ثم ظهرت الدولة الحمدانية في شمال الشام. وتكونت أيضا الدولة السمانية، والدولة الغزناوية، والدولة البويهية. وبذلك بدأت كل دولة وكل مدينة تستأثر بنفسها وأصبحت مصلحة كل منها مختلفة عن مصالح الدول الأخرى، ففقدت الرابطة الأساسية والأهم على الإطلاق، ألا وهى رابطة الوحدة بين الأصول المختلفة لتنصهر في بوتقة الإسلام. وتم كل ذلك في غفلة عن قول الله عز وجل:

﴿وَلَا تَكُونُوا۟ كَٱلَّذِينَ تَفَرَّقُوا۟ وَٱخْتَلَفُوا۟ مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلْبَيِّنَٰتُ ۚ وَأُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١٠٥﴾﴾ [آل عمران]

﴿وَلَا تَنَٰزَعُوا۟ فَتَفْشَلُوا۟ وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ ۖ وَٱصْبِرُوٓا۟ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿٤٦﴾﴾ [الأنفال]

وعاش المسلمون على ذلك الأسلوب من الفرقة والعصبية الأصولية حتى صار كل واحد منهم يقدم نفسه بأنه سعودي أو كويتي، سوري أو لبناني، تونسي أو مغربي. وبالتالي انشغل كل منهم فيما كان عليه قومه أيام الجاهلية بدلا من أن ينتمي إلى الإسلام. ولذلك وجدنا من يتحدث عن الفرعونية أو البابلية أوالفينيقية، مما أدى إلى بعد كل ذي أصل جاهلي عن ذوى الأصول الأخرى حتى إن مجموعة من الشعراء في الدولة الفارسية شرعوا في الخروج عن الدين، وقال بشار بن برد يفتخر بانتمائه إلى فارس ويقلل من شأن العرب:

هل من رسول مخبر عني جميع العرب
من كان حيا منهم ومن طوي في التراب
جدي الذي أسمو به الذي أفتخر به كسرى

ومن هنا بدأت الشعوبية تطل برأسها وتحن إلى سالف مجدها، فهل يعقل أن يمدح كسرى الذي مأواه النار وبئس المصير؟ أيمدح من كان يعبد النار ويشهر عداوته لرسول الله ﷺ وللإسلام ؟ للأسف، هناك الكثير من أبيات الشعر التي تسير على هذا النهج مما يشير إلى انفصال عرى الاتصال بين الأفراد وبين الأمة. وهذه مجموعة أخرى من الأبيات التي تدل على مدى العودة إلى الأصولية الجاهلية قال: مهيار الديلمي (فارسي الأصل):

قومي استولوا على الشمس ضحا ... وبنوا أمجادهم في الشهب
وأبي كسرى على إيوانه ... ومشى فوق رؤوس الحقب

وضـــممت المجـــد مـــن أطرافـــه ســـؤدد الفـــرس وديـــن العـــرب

وقد أدى ذلك التفرق إلى أن تبحث كل دولة عن حماية نفسها بالأسلوب الذي يناسبها حتى ولو كان فيه بعد عن الإسلام وبغض النظر عن مصلحة الدولة المجاورة لها. وبالتالي تفرق الشمل وضعفت الأمة.

الحملات الصليبية، ورع ... أم طمع

وبالطبع كانت الدول الأوروبية تترقب ما يحدث في الشرق. وبعد أن كانت في وقت سابق تخشى المد الإسلامي الذي كان قد زحف على أطراف وحدود فرنسا وايطاليا وألمانيا، بدأت تلك الدول تطمع في كنوز الشرق لاسيما أنها استشعرت بفقدان الرابط بين الأقطار الإسلامية بعضها البعض. وتنامي لدى الغرب الأوروبي الشعور بأن الشرق فاتح ذراعيه لمن يبحث عن الثراء السريع. وبالفعل أصبح هناك أمل لكل عاطل عن العمل، أو قاطع طريق، أو أمير باللقب فقط دون تولى أية إمارة، في أن يحقق أحلامه من خلال اغتنامه لجزء من الغنائم التي يمكن الاستحواذ عليها من الشرق. ومن منطلق الجشع والطمع نشأت فكرة الحملات الصليبية التي ليس لها في واقع الأمر أية صلة بالدين أو الصليب تماما كما قال المؤرخ الألماني هنري فون عندما تحدث عن بطرس الناسك الذي حرك أول حملة صليبية والتي أطلق عليها "حملة بطرس الناسك". وأوضح فون أن الموضوع برمته كان كذبا على العامة من الناس حتى أن كل من كان له هدف دنيوي يسعى لتحقيقه في الشرق أعطى لهدفه صبغة دينية زائفة وانضم للقوات الصليبية التي تنوى الاستيلاء على بيت المقدس. وتحرك بالفعل بطرس الناسك بالحملة الصليبية التي اتخذت من الدين شعارا تغرى به من يرغب في تحرير بيت المقدس وزيارة كنيسة القيامة والانتقام من المسلمين الذين يضطهدون المسيحيين. وما يدل على زيف الإدعاء الديني الذي روج له بطرس الناسك، فقد أمر قواته بالإغارة على المجر

والقسطنطينية والاستيلاء على أموال النصارى من أبناء ملتهم وقتلهم حتى تحرك قسطنطين بجيشه وقضى على حملة بطرس الناسك التي انتهت دون تحقيق أي نوع من المكاسب.

﴿ لَهُمْ قُلُوبٌ لَّا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَّا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ ءَاذَانٌ لَّا يَسْمَعُونَ بِهَآ ﴾ [الأعراف:١٧٩].

في تلك الأثناء بدأت دولة سلاجقة الأتراك في شمال سوريا تتنبه للخطر القادم من الغرب وانطلق منها المبعوثون إلى ملوك وحكام ووزراء بغداد، والقاهرة، ودمشق، والحجاز، واليمن، يخبرونهم بالخطر الذي يتربص بهم. وتذرعت كل دولة بسبب مختلف لعدم الاستجابة لدعوة التوحد لدرء الخطر، فمنهم من تذرع بالحالة الاقتصادية المتدهورة، ومنهم من ادعى وجود مشاكل سياسية داخلية في الدولة، وأيضا منهم من استهان بالأمر وظن أن الخطر لن ينالهم بأى حال من الأحوال.

وبدأت الحملة التي تعرف تاريخيا بالحملة الصليبية الأولى تحت قيادة ثلاثة من القادة هم جودفرى الألماني، وريمون الفرنسى، وبوديموندو الإيطالي. وكانت تلك القوات تتألف من ستمائة ألف من المشاة ومائة ألف فارس. وعند تحرك القادة الثلاثة من وسط أوروبا وصلت الأخبار إلى سمع أرسلان أمير الدولة السلجوقية الذي أرسل المبعوثين ليحذر الدول الإسلامية من الخطر الذي يهدد العالم الإسلامي. وللأسف لم تقدم هذه الدول أية مساعدة عسكرية أو مادية، وإنما تملص حكامها من المسئولية وادعوا بأنها مشكلة خاصة بالدولة السلجوقية وحدها دون أن يفكروا في إخوانهم الذين يقتلون ويتعرضون للمخاطر. وكان ذلك بمثابة الإشارة بان العقد قد انفصمت فصوصه بعضها عن بعض ولم يعد الإسلام هو الرابط بين المسلمين، وإنما أصبحوا ينتمون إلى دول مختلفة. وبدأت بالفعل الحملة الصليبية الأولى ونجحت الدولة السلجوقية في صد الهجمات الصليبية لمدة عام

بأكمله، ولكن عدد وعدة الغربيين كان كبيرا في حين كانت إمدادات المسلمين ضعيفة. وحقق الصليبيون الانتصارات وتكونت أول إمارة صليبية في أراضي العالم الإسلامي ، إمارة الرها، التي كانت بمثابة الخنجر في القلب، سبحان الله... وبذلك أصبح الخطر الناتج عن تلك الحملات واضحا ، إلا وهو الاستيلاء على بيت المقدس والمسجد الأقصى.

ورغم ذلك الخطر المحيط بالأمة فلم يتحرك أحد إذ كانت الغفلة مسيطرة على الأفراد والحكام. كان كل منهم مشغول بنفسه، غير عابئ بما يحدث لأخوته المسلمين في بقعة أخرى من بقاع الأرض طالما أن تلك البقعة بعيدة عنه. ولكن في واقع الأمر، تهو ن المسافات في أعين المعتدين عندما تكون الأهداف استعمارية. وهو ما حدث بالفعل حيث نزل الصليبيون على أنطاكيا وحاصروها تسعة أشهر. وعندها خرج المبعوثون من قبل الدولة السلجوقية إلى الحجاز والقاهرة وكل مقر إسلامي طالبين النجدة والعون، ولكن للأسف دون جدوى، فالشعور قد تبلد، والقلوب والأعين والأذان قد تعطلت عن تقوى خالقها سبحانه وتعالى. وما أقرب الأمس إلى اليوم! أليس ذلك ما يحدث الآن؟ ألسنا نشاهد بالتلفزيون، منذ فترة ليست بالقصيرة، مناظر قلوب الأطفال وقد اخترقها الرصاص، أو الجرحى والمعذبين الذين لا يجدون من يهب إلى نجدتهم من أهل بيت المقدس والعراق ومواقع أخرى كثيرة؟ لقد حلت حالة اللامبالاة حتى أن المسلم أصبح يعيش حياته ويمارس أنشطته اليومية دون أي رد فعل. ونفس ملامح هذه الحالة الحالية كانت شائعة في ذلك العصر، فلم يكن أحدا متنبها لآيات الله عز وجل.

فرق... تسد

وعلى العكس من ذلك، كان الغرب مدركا لأهمية التوحد حتى أن الفيلسوف الألماني ديدبة كان يروى لأمير في الهند اسمه توبشليم قصة الثيران الثلاثة ليشعره

بالقيمة العظيمة للوحدة. وقد تنطبق هذه القصة على واقع الأمر حاليا كما تنطبق على أحداث تلك الفترة من الماضي. وتروى أحداث القصة أن الثيران الثلاثة كانوا بألوان مختلفة، أحدهم أبيض اللون، والثاني أحمر، والثالث أسود. وكان الأسد قد حاول في كثير من الأحيان أن يأكل أحد الثيران الثلاثة ولكنه لم ينجح في ذلك لأن الثيران كانوا يتواجدون سويا بصفة دائمة ويحمى كل منهم الآخران. فأخذ الأسد يفكر في حيلة تمكنه من تحقيق مأربه فأخبر الثور الأبيض بأنه أجمل من الثور الأسود، ثم أخبر الثور الأحمر أنه أجمل من الثور الأبيض، وأخبر الثور الأسود أنه أجمل من الثور الأحمر. وبعد أن كان الأسد قد بث بذور الفتنة بين الثيران الثلاثة، هجم على الثور الأبيض ولكن الثورين الأحمر والأسود لم يدافعا عن ابن جنسهما بسبب الخلافات التي أشعلها الأسد بينهم. وتمكن الأسد بالفعل من أكل الثور الأبيض ثم الثور الأحمر. وعندما جاء الدور على الثور الأسود ليأكله الأسد، نطق بالحكمة المستخلصة من هذه القصة :"لن يأكلني الأسد اليوم، لقد أكلت بالفعل يوم أكل الثور الأبيض!".

وعلى مستوى الدول، فإن الخطر الذي يتربص بدولة ما لابد وأن يلحق بدول أخرى إذا لم تحرص مجموعة الدول ذات المرجعية الواحدة على التوحد لدرء ذلك الخطر. وعليه، نجد أن الأمراء المسلمين في ذلك الوقت لم يفقدوا دولهم تباعا وإنما خسروها عند أول لحظة سلموا فيها أبناء ملتهم لعدوهم. فإذا احتاج المسلم لمساعدة أخيه في الإسلام فلا بد أن تتم الاستجابة في الحال. وإذا لم يقم المسلم بمد يد العون لأخيه فإنه يحق عليه قول الرسول ﷺ: **"ولم ينقضوا عهد الله ورسوله إلا سلط الله عليهم عدوا من غيرهم فأخذ بعض ما في أيديهم"**(أخرجه الطبراني). فإن اعتذر القطر الإسلامي عن تقديم العون خوفا من التعرض لأزمة اقتصادية فلسوف يأتي من يستولى على الاقتصاد بأكمله.

الحروب الصليبية ... أمس ... واليوم أيضا

وسقطت أنطاكيا بعد تسعة أشهر من استغاثتها ببغداد. وكان من المفروض أن يستعد أمراء دمشق وبغداد والقاهرة لصد الهجمة على الدول الإسلامية طالما أن المسئولية تحتم عليهم القيام بذلك. ورغم أن الألقاب التي أخذوها مثل مجير الدين، ومعين الدين، والمسترشد بالله، والمستظهر بالله، كانت توحي بحميتهم للدفاع عن المحارم الإسلامية، إلا أن الواقع كان مخالفا لتلك الألقاب. وعلى عكس المفترض حدوثه،

بدأ هؤلاء الأمراء في إبرام اتفاقيات ومعاهدات بعدم الاعتداء مع الأمراء الصليبيين القادمين لانتزاع أراضى الإسلام. ونتيجة لذلك الواقع المرير، ظلت طرابلس محاصرة ١١ سنة دون أن يغيثها أحد فوقعت في أيدي الصليبيين. وكانت الخطة الصليبية قد بدأت بالاستيلاء على أنطاكيا ثم طرابلس وبعدها بدءوا يتحركون في اتجاه بيت المقدس. وما كان من الأمراء المزيفون إلا أن هربوا عندما علموا بقرب وصول الصليبيين، تاركين خلفهم سبعين ألفا من الأطفال والنساء والشيوخ. وفى تلك اللحظة تنكشف كل أكاذيب وادعاءات الصليبيين من سماحة ورحمة عندما يأمر ريمون جيشه بذبح أولئك السبعون ألفا من الأبرياء. وان لم تكن حرب الصليبيين دينية على حد زعمهم فماذا كان عساهم أن يفعلوا أكثر من ذلك؟ وما أشبه اليوم بالأمس؟! أليس ذلك ما يحدث في فلسطين، وأفغانستان، والعراق، وبقاع عديدة غيرها؟

ميسون الدمشقية

في وسط كل تلك التفاصيل المحبطة تطل علينا قصة الفتاة الدمشقية ميسون والتي تترك أكبر الأثر في نفس كل من تعرف على ملابسات موقفها الإيماني تجاه ما كانت الأمة تواجهه من مأساة، وامتثالها لأوامر الله عز وجل، وانتمائها للإسلام،

على النقيض من الذين يتقاعسون عن ذلك وفقا لما ورد عنهم في القرآن الكريم إذ يقول الله تعالى:

﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَا لَكُمْ إِذَا قِيلَ لَكُمُ ٱنفِرُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱثَّاقَلْتُمْ إِلَى ٱلْأَرْضِ﴾[التوبة:٣٨].

من خلال الآية الكريمة يوجه الله سبحانه وتعالى اللوم الشديد للمؤمنين لعدم امتثالهم للأمر الإلهي بالخروج لنصرة الدين والجهاد في سبيله، وإنما التصقوا بالأرض ورضوا بعيشتهم على ما كانت عليه من ذل، وظلم، وضياع.

وتعد ميسون إحدى المؤمنات اللاتي لم تلتصقن بالأرض. كان لتلك الفتاة الدمشقية أربعة أشقاء كانوا ضمن مجموعة المجاهدين الذين خرجوا من دمشق ضمن الجيش المكلف بحماية أنطاكيا واستشهدوا كلهم عن بكرة أبيهم. وذهب الناس لتعزية ميسون في أشقائها الأربعة، وكان أبوها وأمها قد توفيا، وبالتالي أصبحت بلا عائل. وعندما أجهشت النساء في البكاء، كان لدى ميسون رسالة أبى ضميرها إلا وأن تبلغها لذوات جنسها فوقفت لتقول لهن: " إن كنتن قد جئتن لتعزيتي في أشقائي فارحلن، وإن كان بكاؤكن وعزاؤكن على ضياع الأمة والأرض ففكرن معي فيما يمكننا أن نقدمه لأمتنا". ولم يكن لدى ميسون المال الذي تستطيع أن تتبرع به. ومع ذلك فلم تتردد في تقديم أغلى ما عند المرأة من زينة، فقامت ميسون بقص شعرها وقالت للنساء: "نحن معشر النساء لا قبل لنا على الحرب ولا الخروج للجهاد، ولكن مازال بوسعنا توفير الحبال التي يستخدمها المجاهدون لربط الخيول". وطلبت ميسون من الحاضرات أن يقدمن ما هو فى استطاعتهن، فأقدم الكثير من النساء على قص شعرهن. وهكذا تكون المرأة المسلمة قد قصت شعرها على سبيل إتيان ما هو بوسعها لرفعة شأن دينها، وتكون بذلك مثالا لكل منا لتقديم ما لديه لنصرة دينه.

ثم ذهبت ميسون لسبط بن الجوزى في جامع دمشق وقالت له :"ليس باستطاعتنا نحن نساء الإسلام أن نقدم أكثر من ذلك فانظر ما بوسع الرجال أن يقدموا". وما كان من ابن الجوزي إلا أن خطب خطبة في جامع دمشق قال فيها:"يا أيها الرجال، هل أنتم أحياء أم صرتم أمواتا؟ أرض المسلمين قد سلبت بعد أن دفع صحابة رسول الله ﷺ دماءهم ثمنا لها. أو تضيع الأرض؟ فإن ضاعت الأرض فباسم الإسلام أدعوكم، فإن لم تقوموا باسم الإسلام فباسم الإنسانية أدعوكم، فإن لم تقوموا باسم الإنسانية فليكن باسم العروبة إذن. بالله عليكم ، لقد تحركت النسوة وقدمن شعورهن حبالا لكم فتحركوا حتى تكون النهضة والعودة والأوبة إلى دين الله!".

﴿مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا۟ مَا عَـٰهَدُوا۟ ٱللَّهَ عَلَيْهِ﴾[الأحزاب:٢٣].

لقد كان سقوط بيت المقدس إيذانا بتحويلها إلى إمارة صليبية رابعة بعد إمارات الرها، وأنطاكيا، وطرابلس. ولكن الله سبحانه وتعالى قدر أن يلوح في الأفق أمل لإنقاذ الأمة مما كانت عليه من ضياع. فلقد شهد عام ٥٢٢ هجرية مولد عماد الدين زنكي، تلك الشخصية المؤثرة في إعادة رفع راية الإسلام من خلال الكفاح لتحرير بيت المقدس. ونظرا لأن عماد الدين قد استمد أصوله من رسول الله ﷺ وأصحابه الكرام رضوان الله عليهم، فقد أخذ بأسباب الانتصار التي عرضنا لها في الفصل السابق. وأثناء قيامه بالتعرض للصليبيين ومناوشتهم عسكريا طلب العون من الأمراء المسلمين في دمشق وبغداد والقاهرة، وكسابق العهد بهم ، رفضوا تلبية طلبه متعللين بأعذار واهية. استعان عماد الدين بالله العلى القدير وبدأ في مهاجمة الإمارات الصليبية القائمة في ذلك الوقت. ومن هول المفاجأة أنه كلما خرج عماد الدين لمقاتلة الصليبيين خرج جيش مسلم من بغداد أو دمشق أو حلب أو حمص لمنعه من قتال الصليبيين. وكان الأمراء المسلمون يخشون أن يغضب الصليبيون عليهم فيستولوا على أراضيهم. ولذا كان لكل أمير مسلم تفكيره

المنفصل عن الجماعة. وللأسف فلا ينطبق على موقفهم هذا سوى ما نجد من وصف الله تعالى لليهود إذ يقول في كتابه الكريم:

﴿بَأْسُهُم بَيْنَهُمْ شَدِيدٌ تَحْسَبُهُمْ جَمِيعًا وَقُلُوبُهُمْ شَتَّىٰ﴾[الحشر:١٤].

وما أغرب أن يتكرر هذا الموقف في وقتنا الحالي وتنطبق عليه أيضا الآية الكريمة بالنظر إلى ما هو جار الآن من خلافات بين المسلمين بعضهم والبعض الآخر. والغريب أن نفس الخشية من الغرب والتودد إليهم في ذلك الوقت هو بعينه ما يحدث في أيامنا هذه.

إذن، كان لا بد لعماد الدين زنكي أن يعتمد على الله ثم على نفسه وينطلق بثمانمائة جندي ليفتح بهم حلب وحمص، مما شجعه على إحداث زلزال كبير بالصليبيين بفتحه لإمارة الرها وانتصاره على جوسلان. وبالتالي تحمس عماد الدين زنكي لمواصلة تحقيق طموحاته وآماله بفتح إمارة أنطاكيا فأرسل مبعوثيه مرة أخرى إلى أمراء المسلمين بعد أن أصبح واضحا لهم أن النصر حليفه. وكما أشرنا من قبل، كانت أسماء هؤلاء الأمراء فارغة من المضمون، ومع ذلك بعث عماد الدين برسائله إلى مجير الدين ومعين الدين والمسترشد بالله والمستظهر بالله. وكانت فيما يلي رسالته إلى مجير الدين:

"من عماد الدين زنكي إلى الأمير مجير الدين،

أما بعد،

"قد وصلتكم أنباء انتصاراتنا على الفرنج بعون الله وتوفيقه وقد عقدت العزم على المضي قدما في سبيل تحرير كل حبة رمل من أرض الإسلام ولكن ينقصنا العتاد والمال. هلموا إلى تجارة رابحة تنجيكم من عذاب أليم. لقد انقطعت السبل فهلموا وقدموا يد العون لإخوانكم المرابطين في سبيل الله".

ومن المفترض أن يكون لمثل تلك الرسالة أثر يحرك في نفوس المسلمين نخوة الإسلام، أو العروبة، أو أي رابطة مشتركة، ولكن، للأسف، كان رد مجير الدين عبارة عن ورقة بيضاء. ولم يصل كذلك أي رد لعماد الدين زنكي من الأمراء الآخرين، بل على العكس من ذلك، وصلته الأنباء أن مجير الدين ومعين الدين قد تضامنا مع ملك بيت المقدس. فهل هذا معقول؟! وفي تلك الأثناء، وبعد سقوط الرها، أخذت أوروبا في الإعداد لحملة صليبية أخرى بغرض القضاء على عماد الدين زنكي. وبدلا من أن يتجه الأمراء المسلمون إلى مساندة أخيهم في الإسلام، تعاهدوا مع عدوه. ولذا، فلا تستغربن، أيها القارئ، أن يحمل التاريخ ذكرى عطرة لأناس موضعهم في أعماق القلوب، وأن يحمل كذلك البغض لمن لا يستحقون الذكر.

وفي ذلك الوقت، كان عماد الدين على مشارف قلعة اسمها جعبر التي كانت بمثابة الخطوة الباقية لفتح أنطاكيا، الإمارة الثانية من الإمارات الصليبية. وفجأة، تصاب الأمة بفجيعة اغتيال عماد الدين زنكي ليلا، وسط جيشه وعتاده. وقيل أن خادمه قد سمه، ولكن من كان صاحب المصلحة في موت عماد الدين زنكي؟ من الذي أصابه في ظهره بسهم مسموم؟ ويجيب على هذه التساؤلات أصحاب العقول التي تعي أن النفوس المريضة هي التي أحدثت تلك الخيانة المتمثلة في اغتيال عماد الدين زنكي. ولكن شاء الله تعالى برحمته أن يكون لعماد الدين ولدين هما سيف الدين ونور الدين.

واقتفاء للموقف الإيماني للفتاة الدمشقية ميسون، تلح علينا الحاجة لمراجعة أنفسنا بغرض الإقبال على عمل، صغيرا كان أو كبيرا، يكون من شانه المساعدة في نهو ض الأمة. وليكن ذلك العمل في محيط الأسرة، أو المجتمع، فالمهم أن يصب في صالح المسلمين. ورغم صعوبة المهمة إلا أن الأمل معقود على أن ينجح الكثير منا، كما نجحت ميسون، في مساعدة الأمة ولو بشيء بسيط.